قصص

مخبرين وعاشق



محمد بركة

٣ مخبرين وعاشق

"مجموعة قصص قصيرة"

محمد بركة

فهـــرس

" ما أعظم الله، فهو عظيم بقدر ما أنا وحيد "

" مالك حداد "

كتبت معظم النصوص في عام ٢٠٠٠

المواعيد

لو كان ا   خلقنى جندياً فى الحرس الجهـورى وجـاء موقع خدمتى في وسط البلد! لو كان مكتوبا لى فـي اللـوح المحفوظ أن أطل من برج المراقبة على المارة فـي شـارع الثورة بأفرول مموه مكوى وبيادة لامعة وعين مدربة علـى التمييز بين الثيب والبكر من نظرة واحدة إلى حضرة مولانا الهانش!

لو تعرف مواعيدى بنت تضع عدسات لاصقة فتهتـف في ساعة رضا وهى تشير باتجاهى:

– Wow! tall , grey and handsome!

فتضحك صديقة فاضلة أجرت الأسبوع الماضى عملية " ترقيع " وتلوح الاثنتان لى بمنديل كلنيكس عبر السور العالى المتوج بأسلاك شائكة، ثم تتنهدان وقد لاحت أخيرا محطـة مترو محمد نجيب، فيمسحان العرق النابت ويعبران إشـارة المرور في هدوء..

المصور

لكن ا خلقنى مصوراً محترفاً!

رزقنى عدد ٢ كاميرا " نيكـون " ٣٥ مـم و ٧أفـلام كوداك، وقال كن عبداً جوالاً يعمل لحساب من يـدفع أكثـر فكنت. ورزقنى سيارة جيب رانجلر وعلبة سـيجار كـوبى، وقال كن مفتوناً بالشقراوات الحزانى مـن بـلاد مـا وراء البحار، فكنت وقال وقال وقال. وكنت وكنت وكنت، لكننى لا أعرف ماذا قال ا حتى تكون مارى بهذا الجمال المسحور.

تقول مسز اليزابيث ـ والدتها ـ وهى تحاول السيطرة على غضبها:

ـ ابنتى وقعت في حبك، هى تقول ذلك. حسناً ولكنهـا صغيرة ولا تعرف عن الشرق الكثير.

تقول مسز اليزابيث إنه كان ولابد، فلمـاذا لا أتـزوج ابنتها الوحيدة، بشرط أن أعيش معها هناك، في بيت يرجـع تاريخه إلى القرن السابع عشر ويطل على نهر لا تطفو على سطحه الحيوانات النافقة، ولا تتجمع فـي منحنياتـه جثـث العذارى بعد ليلة حب وحيدة..

المقـرئ

لكنه على أية حال لم يخلقنـى مقرئـاً، شـاباً، فتيـاً.. وضريراً! يسحبنى عيل يسير حافياً، ومن منخريـة تتـدلى سوائل، إلى القرافة صباح يوم فيه ولد آدم وفيه تقوم الساعة، وأشم رائحة الندى مختلطاً بالتراب النـاعم لسـكة زراعيـة صارت مقلباً للزبالة، ويتناهى إلى أنفى عبق دخان حرائـق صغيرة مشتعلة في شاطئ الترعة.

" يا مهون! "

فيستجيب رب الأرباب: الكف الطفوليـة فـي يسـارى والعكاز في يمينى ولا عرق ينبت في هـذا البـرد اللاسـع وقريباً جداً نصل، أى نعم، أحس باللزوجـة كلمـا اهتـزت ركبتاى ولكن " من أعمالكم سلط عليكم " إذ لولا أننى تدفأت جيداً وأنا في السرير، ما كنت صحوت وأنا مبتل، لكننا رغم كل شئ سنصل وحالاً أكون في حضرة أجساد ريانة بيضاء، وخصلات ناعمة تغطيها بإيشارب أسود بنات تـرملن قبـل الأوان وجئن يستمعن إلى آيات الذكر الحكيم يتلوها عازب لم يدخل دنيا بعد...

*　　　*　　　*

المحتال

فهل كنت - إذن - عاشقاً محتالاً لا تهب رائحة الجوافة من تحت إبطيه مختلطة بعبق المانجو إلا حين تندفع نافورته البيضاء الصغيرة لتغرق سرة السيدة الجميلة وتبلل ما تيسر من شراشف السرير؟ عاشق لا يتحول لون عينيه من العسلى إلى الأسود الرمادى - اللون الخالد للمحتالين كما تؤكد دوماً - إلا قبل رشاش النافورة بدقائق معدودات، ولا يتضح التشابه الدقيق بين دقات قلبه وإيقاع خطواته أثناء المشى إلا حين يروح فى سابع نومة وتضع أذنها برهافة على صدره العريض.

كانت تنطق " سرة " بلهجة خواجاتى محببة، وتسكن في فيلا صغيرة على طريق موحش عند أطراف المدينة، وحين غارت النجوم، وهدأت العيون، شكرتْ الحى القيوم على نعمة النوم العميق، والعاشق المحتال.

* * *

الثعابين

أم تراني كنت عيلاً لا يمكن وصف نشوته وهـو يطـأ بأقدام حافية وسيقان مسلوعة جحور الخطـر الـداهم! كنـا خبراء في إعطاء الثعبان الأمان، ثـم الإجهـاز عليـه دون مراعاة لزوجة تترمل أو أبناء يتيتمون، وكان الثعـابين فـي غاية الحيرة إزاء قلوبنا الميتة ونحن نمثل بها، فبعد تهشـيم الرأس تماماً وتبطيط الجثة، نحمل المرحـوم علـى العصـا لنزفه مساء فى موكب استعراضى يجاملنا فيه بقيـة عيـال الحارة مشكورين بدق اللحم المهترئ، وحين يطمأن الجميـع أن الثعبان مات بالفعل، ولا أمل مطلقاً في عـودة مـاكرة، بشكل مفاجئ للحياة، نرميه على الأسلاك الواصلة بين أعمدة النور لينشف التيار الصاعق ما تبقى من دمه.

أعرف الآن أننا كنا قساة قسـوة تليـق بـأولاد كلـب ملاعين، فنحن لم نر من هذه الثعابين إلا كل خير، وأقصـى ما يؤخذ عليها ليس إلا حواديت الجدات عن جسـم يتضـخم وريش ينبت، وحيات أسطورية تهبط بجناحين فوق أسـطح المنازل ليلاً..

*   *   *

القباقيب

هل قتل قسوة تليق بأولاد كلاب ملاعين؟

كذبت وأعتذر.

كنا أولاد كلاب محظوظين، لذا لزم التنويـه، والفضـل يرجع على برص ضخم أراه الآن ملتصـقاً مـن الخـارج بزجاج النافذة، أرى بطنه تحديداً.

أشيح بعينى بعيداً، ثم أعود إليه فأجده كمـا هـو آمنـاً مطمئناً في مكمنه الأبدى، أفرد سندوتش الفول، وأفتح كـيس الطرشى، فلا معنى للقرف، لا معنـى إطلاقـا وموسـيقى القباقيب لا زالت ترن في اذنى.

تِكَهَ

ولباس

وشعر كثيف مبتل يغطى سيقان المتوضـئين النحيلـة، يتنحنحون ويبصقون في قرف، ليس لأن المراحيض " عامرة " ع المكشوف بما لذ وطاب، ولـيس لأن الحنفيـة سـايبة وطرطشة الماء تثير الروائح المعطرة " بل لأن القرف كـان من متطلبات التقوى في المساجد النائية التى بناها الفلاحـون

من قوت عيالهم، ولأن واحداً من أهل ا   أصاب البرص في غير مقتل، الدرويش الطيب فصل الذيل عن الجسد بضـربة عصا واحدة، والعيال المحظوظون عاشوا وشافوا الذيل أمامه يتلوى..

*   *   *

الصفصافة

لكننى لا أعرف إن كانوا ما زالوا يذهبون هنـاك كـل ضحى ،إن كانوا يبرمون ذيل الجلابية في جيـب بنطلـون جينز يرتدونه تحتها وهم يبارزون الهواء بسواعدهم الفتيـة وتخرج أصواتهم - مثل حمير طيبة تنهق ساعة صفا، وهم يبتهلون: " اللهم عليك بأستاذة الجغرافيا وحساب المثلثـات! اللهم بدد جمعهم وفرق شملهم واجعل أموالهم من الـدروس الخصوصية غنيمة للمسلمين! ".

لكن المؤكد أنه حين تحمر عين الشمس قليلاً ، يضعون الكتب والأوراق جانباً وينسحبون تباعاً إلى المقبرة الوحيـدة ذات العين المفتوحة ليأخذوا غفوة.

المؤكد أنهم يتثاءبون وهم يرددون المثل الذهبى الخالد " نم وارتاح يأتيك النجاح" لكن النوم لا يأتى أبداً رغم هبـوب بعض النسمات الملطفة من ناحية الترعة فتهتز الأوراق فـي صفصافة عجوز

* * *

الخفـــر

لكنها ستكون ليلة ما يعلم بها إلا ربنا، لو كانوا ما زالوا يندفعون بعد منتصف الليل نحو مبولة مهجورة يفرغون مثانة اشتكت إلى ا وا يعلم أن أصـحابها لسـارقون، وا لا تخفى عليه عمليات السطو بسكين المطبخ على عربات النقل المغطاة بمفارش وحبال بلاستيكية! يملأون حجـر الجلابيـة بالبرتقال الحرام ويعزمون ـ كأولاد ليل يراعون الأصول ـ على زملاء الليل من الخفر، هؤلاء الذين طالت قعدتهم بـلا شغلة ولا مشغلة فقالت لهم الحكومة كونوا خفـرا شرسـين فكانوا خفراً طيبين، يجلسون على عتبات المقاهى الصـغيرة المغلقة وتسيل الثمرات الشهية الناضـجة علـى شـواربهم الهائشة ثم يقومون أخيراً وقد أحسوا بلسعة البـرد الخفيفـة، يمسحون أصابعهم في اللافتات الورقية المعلقة على مـداخل الجوامع ويحملون على ظهورهم بنادق قديمة شبعت النـاس تنكيتا عليها، ثم تتفرق خطواتهم فى الحوارى البعيدة النائمة..

*　　　*　　　*

البقــرة

هم أيضا نفس العيال الذين طاردوا الفراشات البيضــاء فى غيطان البرسيم حتى استسلمت وقالت أمرك يا صــاحب الأمر وهى ترى أجنحتها الرقيقة تتفتت دقيقاً يذروه النســيم! العيال الذين سرقوا " أفئول " اللبن من داوار الحاج إبــراهيم أبو مجاهد، ورفعهم أجدادهم على اكتافهم وهم صغار، لكنهم فعلاً مثل القطط يأكلون وينكرون.

البقرة الصفراء الفاقع لونها تجمع حنان الدنيا فى مقلتيها وهم يزفونها إلى دكانة عم حسين الجــزار، كانــت ذبابــات جائعة تحوم حول سائل المرض المتجمع في زاوية العــين، بينما كانت السواطير والسكاكين على كل لون يا زباين..

* * *

الأمـــــس

أحدهم تطاول عليه الأمد وفكر أنه ليس مثل بقية خلـق ا كى يزيل شعر إبطه مستخدماً " كريماً خاصا" أو ينتفه أو يتركه هائشاً اقتداء بالبطل الأسطورى فى فـيلم " بروسـلى يتحدى سوبرمان "! وبالفعل كان يحكم إغلاق باب غرفتـه، قبل أن يرفع ذراعه ويقرب عود الكبريت المشتغل فيئز فوراً صوت شعر آدمى يحترق، وتفوح الرائحة المميزة وينتهـى الأمر فى ثوان...

لم يكن " لاسعاً " أو " ماسوشياً " يستعذب صهد النـار وهو يلفح هذه المنطقة الحساسة من البشرة، كان شخصاً ابن قبحة والسلام،يحسن الاستغراق والتركيز، يأتى على شـعر الإبط،يهبط إلى شعر صدره، ثم يهبط أكثر.

كان " مشعراً " ولكن الأمر كان قد تحول إلـى مـزاج فأتى على كل شعرة في جسمه وقعت عليها عيناه، وها هـو الآن، نفس الشخص الأصلع، الرجل ذاته الذى سمحنا لأنفسنا أن نغرس فى لحمه الحى سكاكين فضولنا ومللنا، هـا هـو يجثو على قدميه فى حضرتها البهية، مومس أم شرموطة أم

بتش لا يهم، ما دامت ترقد بسلام مفتوحة الساقين على إثـر مخدر دسه لها في الشاى، فيما كان عود كبريـت مشـتغل باتجاه شعرها المتكاثف مثل دغل أفريقى على نهر...

*   *   *

الحنـطـــور

أما الآخر فقد ركب حنطوراً، وكان من قبل " يتشعلق " فى مؤخرة الحناطير، وكان من قبل يلف الشوارع ويختـرق الحارات مستمتعاً بهذه النزهة البلوشى وكان ابن ستين فـي سعبين إذا رأى عيلا غيره "متشعلق" يصرخ بعزم ما فيه:

ـ كرباج ورا يا ابن المَرَة!

فيمتثل العربجى على الفور ممتنـاً ويفرقـع الكربـاج فيرتعب الولد المتشعلق من طرف الحبل الرفيع المعقود، أما اليوم فركب حنطور وكان من قبل يتشـعلق فـي مـؤخرة الحناطير...

*   *   *

الخـرشـ ـوف

من الجائز أن يسقط أحدهم ـ سـهواً بـالطبع ـ مـن كشوف القيد داخل السجلات المدنية! أقول قولى هـذا وفـي ذهنى من كان بشاربه المضحك يذكرك بباشوات المسلسلات، وبجسده المتربى على السمن البلدى، و"العيش" المرحرح، لا يبدأ يومه بالصلاة على طه الحبيب " لم يكن يعـرف خبـث الفلاحين " ولا يستفتح بكلمة من نوع: يا فتاح يا علـيم يـا رزاق يا كريم " لم يكن يعرف لؤم الباعة والفواعلية " وإنما يلعلع صوت أبو سِريع رائقاً مثل الندى على وردى بلدى:

ـ الخرشوف الكبييير...قوى!

فتطل من المشربية واحدة ست ندعو ا أن يكون لحمها الأبيض مغسولا بماء الياسمين، ونتمنى على ا أن يكون فى ثديها الأبيض حق معلوم للسائل والمحروم من أولاد الكلـب أمثالنا، ولا يكثر على ا أن يخرج صوتها محملاً بدلع الدنيا والآخرة:

ـ كبير قوى يا معلم؟

فيتحسس الشاب الريفى القادم من ضواحى الجيزة ما بين فخذيه محرجاً، ويدفع عربة اليد أمامه ليمضى مرتبكـاً فـي شارع جانبى أرضيته بلاط وفوانيسه لم تضئ بعد..

*   *   *

المظـاهــرة

مع العلم أن بعضه لا تأتيه الأفكار " الزين " إلا ونحن نتناوب وش الفجر على جوزة ماؤها وسـخ تكاسـلنا عـن تغييره، وجمرها كان في الأصل فحماً مغشوشاً، هكذا فكـر البرعى وقدر، ثم ابتهج كيف قدر، ثم عـبس وقـال: بكـرة الساعة واحدة بالثانية أنا عازمكم على أول مظاهرة حريمـى فى مصر!

فى الموعد المحدد، تسللنا نحن الثلاثة داخـل مجمـع التحرير، واتخذنا مواقعنا فى العتمة خلاف النوافـذ المغلقـة جيداً، كان المجمع خالياً حتى من دبة النملة، لكننا ـ من باب الاحتياط ـ خفضنا رؤوسنا وواربنا الشيش قلـيلاً، وبـدأنا نتطلع فى حذر إلى الميدان الخالى، كان عباس أول من قطع لحظات الترقب المثيرة حين همس:

هما فعلاً هيقعلوا السونتيانات ويحرقوها لمـا يسـخنوا ويندمجوا فى الهتافات؟

أخرجت علبة سـجائرى، واضـطررت لأن أعـزم، فأغلقنا الشيش تماما وجلسنا على الأرض نـدخن، وعيوننـا تلمع فى العتمة الخفيفة..

*   *   *

الجـلالـة

مرة أخرى اضطر إلى أن أعزم وأبعزق وأصرف مـا في الجيب، ومت يا حمار إلى أن يأتيك ما فى الغيب، وكـل ذلك بسبب البرعى وعباس، يعنى بسـبب أعـز صـديقين يرعيان - زى ما سيادتك شايف - فى الكباب والكفتة كمـا ترعى خنازيرنا الطيبة فى زبالة المقطم والدويقة.

أخذتنى الجلالة فقلت: أيها الضوء... أيتها القطيفة.. من يشترى عمرى، ليس بلحظة فرح، بل بسبيل اسمه سـبيل أم عباس، وبصفين من أشجار التمر حنه على جـانبى شـارع مبلط تضاء فيه فوانيس الغاز بمحبة وانتظام ساعة المغربية، من يأخذ يا عالم مستقبلى الواعد فـي المؤسسـة الرخاميـة ويعيطينى بق ميه من قُلة بوزها مشروم أو حتـى جرعـة واحدة من كوز ألومنيوم معلق بسلسلة معدنية فى زير صغير تحت تعكيبة عنب؟

من....؟ من...؟

ظللت أنبح مثل كـلب رأى رأس إبليـس حتـى لبـانى الجرسون أخيراً بزجاجة معدنية، فتمالكت نفسى من الانفعال، وطلبت " الحلو" للخنازير وأنا فى غاية الحرج...

*　　　*　　　*

البخــــور

من أجل هذا كم تمنيت أن أكون المقصود بالنداء الفخيم الذى يرن في الفضاء وتردد صداه الجدران.

ـ يا ولد!

والجو عاصف بالمسك والبخور، والضوء الأخضر الخافت ينبعث من الزوايا المعتمة دون أن أحتاجه في شئ، فالمغارة أعرفها مثل أصابع يدى، لم أدلق يوما محبرة، لم تصطدم رأسى بالثريات المدلاة، وأنا أخف إلى هذا الجمال المتكئ على العرش، أنحنى ويتقوس ظهرى وأبالغ فى الانحناء. ليس الخوف أو التملق، العشق يا ناس، ربى وأعشقه وأحن إلى الوصال .

ـ أين كنت يا ولد؟

صلعته يا خواتى! وجهه العريض الأسمر، والمبسم في فمه لونه أرجوانى.

ـ قررت ابنى مصر يا ولد!

وأنا على الشيشة منكب، والماشة الفضية في يدى، أحنو على الجمر المتوهج أرص الصنف الملوكى والدنيا لا تسعنى، إنه أنا اختصتنى عنايته بهذا الشرف الرفيع، حِدِقْ من يومى، وبفضل حداقتى سيكركر ماء الشيشة الوردى ويتهادى الدخان المقدس من منخريه وفيه..

*　　　*　　　*

القـديـس

لكن النداء الذى قُصدت به كان أنثوياً مبحوحـاً يـوقظ الرجولة فى الحجر:

ـ عاوزاك!

فتدفقت على الفور ذكريات كنيسـة بعيـدة مغمـورة بالضوء يعلو قبتها تمثال من البرونز لسـيد الشـهداء وهـو يصوب رمحه المقدس إلى التنين، وهات الـروائح القديمـة المحبوسة في الأقبية المعتمة ممتزجة برائحة شـمع جديـد يحترق.

واتخذت الدنيا بحالها شكل صليب تجلى طيباً وحنونـاً عبر الطلاء الرطب على الجدران العتيقة.. عبر الشمعدانات الحديدية والأيادى الرقيقة لآنية الفخار، وعبر فتحات التهوية قرب السقف العالى.

ـ عاوزاك قوى!

غرفة التعذيب، وقد تحولت إلى مزار، هـى وجهتنـا وكل ما يحن إليه جسدانا، نُخفض رأسينا حتـى لا نصـطدم

بالسقف ـ الواطئ هنا ـ ثم نركع متعـانقين فـى العتمـة المطرزة بضوء الشموع.

ـ عاوزاك قوى يا حبيبى!

كم كان حييا مولانا القديس وهـو يطـل علينـا مـن الأيقونة.. !

*　　　*　　　*

العشـب

... أما إذا ضربنا الحنين إلى الخضرة، جئنا هنا حيث الجنينة الوحيدة التى غفل عنها البـوليس، ونسـاها بهـوات المخبرين!

صباح مضئ..

شمس واهنة..

عشاق، من الفرحة، لا يصدقون أنه بإمكانهم أخيراً أن يستلقوا على الحشائش دون أن يسرع إليهم مرتبكاً حـارس شاب ليقول فى حرج:

- ممنوع!

ويلسع عينيه انتصاب الحلمة تحت بلوزة خفيفة مخرمة.

ويمد من الشوق لساناً يرشف حليب البشـرة الملسـاء للبطن المشدودة، تستند حبيبتى على كتفى وهى تقوم، بينمـا أتطلع إلى وجه العاشق، فتأخـذنى الرجفـة لكـن العشـب يوصينى بالسكوت..

*   *   *

الضـــــوء

هذا لا ينفى أننى ذات مرة وضعت رأسى على المخدة، منذ ساعة زمن لا أكثر، مهدود الحيل رحت فى النوم كـأى ذبابة دايخة قبل أن يستيقظ أولا تليفونى المحمول، تسلل إلى رنينه المتعب كأنين خافت في بئر غويط، ثم تدريجياً تصاعد لأشعر بشاكوش يطبطب فى غضب على دمـاغى، تأهبـت أخيراً لسب محدثى بالقبيح وأنا أقول " ألو " لكنه همسها أتانى مجروحاً:

ـ متخونيش وأنا ح اديلك كل حاجة حلوة!

أفقت، فأغلقت هى الخط فوراً تاركة لى مستطيلاً مـن ضوء الفجر الأبيض، وقطرات ندى متكاثفة علـى زجـاج النافذة أخط بها إسماً أعبده وأنا أتنهد، ثم يصفو ذهنى تماماً..

*　　　*　　　*

السهـــارى

لذاك، فالذين اعتادوا التنزه ليلاً على الكورنيش عنـد " جليم" ربما يتفهمون بسهولة ما سأقول والكذب الكذب أقول.

كانت ذقنى أشواكاً وشعرى غباراً حين رميت جسـدى المهدود على المقعد ١٣ فى السوبر جيت لأشفط دمعة الحيرة من عينيها، وصت إلى المدينة التى لا تنام قبـل منتصـف الليل. هاتفتها من سنترال بدائى مزدحم، فلم تصـدق أننـى تركت كل شئ وجئت، غافلت البواب الصعيدى وصفرت لها من تحت الشرفة فبدأت بالكاد تستوعب المفاجأة.

وأخيراً انكمشت في حضنى ونحن على حافـة لسـان صخرى يمتد طويلاً داخل البحر الراقد فى العتمـة، الهـواء المنعش أهدانا جميع التعليقات الجارحة للطيبين من عـابرى الكورنيش السهارى..

*　　　　*　　　　*

العـاشــــق

هذه المرة كان اللسان الصخرى يمتـد نحـيلاً داخـل بحيرة لا يزال سطحها يحمل آثار أقـدام الأنبيـاء، وداخـل واحدة من ٢٠٠ غرفة بنيت على هيئة أبراج حمام، لابـد أن حبيبتى تتناول الآن شراباً تعاركت عليه الآلهة قديماً ويـداوم مصنع فى جنوب فرنسا على تسـويقه إلـى هـذا الفنـدق المهجور، أحمل إليها بيض السمك الفاخر، فتخرج من تحت البلاطة أوراق البوكر: " هنا اغتالوا العاشق البدين! " فـأهز رأسى موافقاً على كلماتها.

" كان ينوى أن يواصل اللعب، لكن الفلاحـين هـزأوا بشاربه الملكى المبروم، وحضرة البكباشى سـرق عويناتـه المستديرة!" أحتضن ارتجافها تاركاً دموعاً ساخنة تسح فـى هدوء..

* * *

الفوشيا

إنها مولاتى التى تعشق بلوزتها الفوشيا بشكل خـاص، فهى تبرز خصراً ينافس خصر راقصـات المعابـد علـى الجداريات الفرعونية بعكس الأغلبية الساحقة من حسـناوات مصر الطيبات اللاتى يعانين هذه الأيام من فـائض شـحوم ودهون لم تعد أردافهن الراجراجة بقادرة علـى اسـتيعابه، ولان البلوزة من دون كم، تضطر مولاتى إلى ارتداء شـال أبيض ملفوف منقوش بورود بنفسجية حتى تـدارى عـرى كتفيها وذراعيها من عيون أولاد الحلال المشتاقين لسـنتيمتر من اللحم الأبيض.

وحين نصل إلى بقعة ظليلة فى حديقة اليونانى الـذى شقنه قديماً حاكم المدينة الساحلية ليجعـل قصـره مخـدعاً لمحظياته، يمكن لها أخيرا أن تخلع عنها الشـال وتمـارس هوايتها الخالدة بأن ترقد على بطنها فى استستلام لذيذ للهواء الذى يضرب تنورتها الخفيفة، وللعشب الناعم الـذى يتـرك علامات رقيقة على خديها.

الجسد يحن كما الأبل، والشهوة تضرب نافوخى، غير أنى أظل وفياً لمهمتى كحارس أمين على الجمال النائم، عينى فى راسى أعرف خلاصى، وأراهم على البعد، فأعرفهم على الفور، يقول أضخمهم فى لهجة آمرة:

ـ قل لها تتعدل وتقعد زى بقية الناس أحسن لك!

فلا نتمالك أنفسنا من " كريزة " ضحك تنتابنـا فجـأة فتدمع أعيننا، ونخرج للمخبـرين الثلاثـة، وقـد أعطونـا ظهورهم، لساناً لا يزال مطلياً بحمرة البنجر منذ الفطور..

*　　　*　　　*

الآسيوية

قررت إذن ـ من باب الطاعة والإخلاص لإله الرغبة ـ إطفاء الأنوار فى الغرفة رقم ٢٢١ ولم أبق إلا على نور الاباجورة الخافت، كان اصبعى ينزلق سريعاً عبـر الشـعر الناعم البعيد، طار النوم من عينـى تمامـاً، تثاءبـت هـى وهمست no, I want it a sexlees night ثم ابعدت يدى برفق ـ لكن بحسم ـ وأعادت قطعـة الملابـس الداخليـة المخرمة إلى وضعها السابق، ما العمل إذن، والواحـد منـا يهيج ـ والحمد ـ على نملة، ومن رأيتها يا ناس فى قناة arte الفرنسية وأنا أغالب النعاس لم تكن نملة، وما حدث مع مهرة بيضاء أسيوية تهادت فستان زفاف ممزق عبر مجرى مائي يخترق غابة استهوائية كان شيئا يفوق حكمـة الشـرق الأقصى، وهل كان باليد حيلة وأنا أتسال مرة أخـرى إلـى ٢٢١ مدارياً توترى عن عامل سرفيس يخطو قبـل الفجـر بطيئا في طرقة رومانية طويلة تختبى فيهـا كـرات النـور هنا..وهناك..

* * *

الألاطـــة

ثم أقررت أن أعود مرة أخرى ولد طيباً يلقى التحيـة فى أدب وخشوع.

ـ عمت صباحاً سيدى نابليون!

لكنه فى وقفته الشامخة يقبض على سـيفه ولا يـرد، فنقول له طز فيك ا يخليك، ثم نستدير إلى الست أفروديـت نعافيها بالعافية، لكنها شاردة ترنو بعين ساحرة إلى لا شـئ، وأبداً لا يغلب حمارنا، نظل نتمرغ على العشب الندى، ونحن نتلو قائمة التعظيمات العثمانلي على أجساد رائعـة الحسـن والجمال تآكلت منها ذراع منحوتة من الجبس أو نهـد مـن البرونز، ومازالت فى وقفتها الأليطة، عندمدخل الحديقة، تسد عين الشمس...

* * *

البـــــازار

لن يجبر بخاطرى إذن سوى مولانا " ممنون " الجالس فى عظمة عند مدخل البر الغربى لحراسة هـذا الملكـوت! سأحمل رغيفين بتاو وحتة جبنة قريش وأقول له سايق عليك النبى محمد يا شيخ تمد إيدك باسم ا وما تكسفنيش!

وحين تظل العين الجميلة المنحوتـه مـن الجرانيـت الوردى ثابتة لا يطرف لها جفن سـأعرف أن آدى ا وآدى حكمته، وسأنتظر حتى يحل منتصف الليـل وينـام الخفـر لأتسلق ـ مهتـديا بضـوء النجـوم ـ الحـاجز الحديـدى المضروب حول الأصابع العملاقة، سأسمع اللحـن المميـز يتصاعد خافتاً من الناى المنتصب بين يدى مولانا، وستطلب مراقصتى أرواح قدسية نهبوا قبورها وعرضـوا أجسـادها بسعر " متهاود" فى سوق البازار....

*　　　*　　　*

الجعـــران

الجعران هو الآخر كان منحوتاً من الجرانيت الوردى، والحجيج من كل الجنسيات، هؤلاء المؤمنون، عباد إيـزيس وأوزوريس، تركوا ندف الـثلج، وتشـابك الأغصـان فـى الأحراش، وجاءوا يطوفون حول إله جديد تحيط به أربعـة قوائم معدنية موصلة بحبل من قطيفة حمراء ناعمة، كانـت حبيبتى مندسة بينهم تنتظر أن تتم دورتها السابعة حتى تتحقق لها أمنية، وكنت أستحم فى الشمس على حافة بحيرة مقدسـة تفوح منها روائح ماء آسن..

* * *

الموسيقـار

وحين لم نكن صحبة، لمت شعرها فى ذيـل حصـان كمنت أنا بين الفروع فى هـدوء، أزاحـت بعـض الأوراق وأطلت على القفا العريض المحتـرم لحضـرة الموسـيقار الجالس رجلاً على رجل فى منتهى الأنفة والكبرياء.

كان الصبى قد صعد إلى الركبة وعلق الجردل من يده الحديدية في الأذن، ثم بدأ يدعك الظهر بليفة جديدة وصابونة لها رائحة الليمون، يدعك يدعك يدعك، وحرارة الجو تلـتهم الرغاوى أولاً بأول حتى وصـل أخيـراً صـبيان آخـران يجرجران خرطوماً ثقيلا، كان الرذاذ منعشا يكاد يتسرب من بين الأوراق إلى وجهها الجميل، بينما كانت الصلعة اللامعة للموسيقار صامدة فى مواجهة رشاش الماء المتدفق صـوب الجسد البرونزى الهائل...

*　　　*　　　*

الحـــرس

كنت مغلوباً على أمرى أعود وأتجرأ وألف ذراعى حول خصرها.

الدنيا ليل..

الشوارع الجانبية اسكت هس ! وأنا العاشـق أخطـف البوسة فتدوخ البنت، وترتبك منها الخطوات، يلمحنا البـواب النوبى من على دكته الخشبية فيتراخى نفخـه فـى النـار، يصوب إلينا نظرة غامضة وهو يفرك يديه على مهل متناسيا لسعة البرد، بينما يكف حرس السفارات من عساكر الأمـن المركزى عن الهزار، يصمتون تماماً وهم يرقبوننا من على الرصيف المقابل، وحين تلتقى عينـى أعيـنهم يتظـاهرون بالإنصات إلى راديو صغير يلصقه كل منهم بأذنه.

نصل إلى التقاطع مع الشارع الرئيسى فتدهمنا أضواء السيارات يتعمد سائقو الفولفو والأوبل فكترا والـ BMW حصارنا بوابل من الفلاشات المتلاحقة، بينما تخرج هى قلـم الروج لتصلح ما أفسدته شفتاى..

*   *   *

الإخلاص

حدث هذا رغم أننى جاهدت لسنوات كى لا أقع فى الحب! إذ كيف لمثلى أن يخلص، والشجرة لا تغنى عن الغابة، وثمة حلمات كسولة لم أوقظها من سباتها بعد، لكن الفاس وقعت فى الرأس، وأحببت، وعرفت أن ا حق، وعرفت أن ا لو كان خلقتى شاعراً مثل محمد البرعى لقلت:

أنا لما باحب

باحب بجد

ولما باحب بجد، باموت

هل الحب هو الموت؟ يهيء لى أن البرعى ولد سكندرى يعلب بالبيضة والحجر، الحب هو الإخلاص، والإخلاص هو أن تتورط أكثر فأكثر فى العادة السرية، بينما حبيبتك على يقين من أنك تفرغ توترك كل مساء بين نهدين لا حد لنعومتهما....

*   *   *

الخدعة

وتذكرت أنى لم أكن الوحيد الذى رآها أمـس وهـى واقفة على ناصية الشارع الشهير فى انتظار زبـون يغريـه شعرها المضروب بالأوكسجين أو يستفزه صدرها العـارى الذى تكفل بضموره العلم الحديث، لم أكن أيضا الوحيد الذى باع له واحد ابن حلال الشمس فى " قزايز " وجعله يصـدق أنها جاءت قديماً من الريـف الجـوانى بجلبـاب أخضـر فضفاض، وضفيرة مدهونة بزيت الزيتون تحمل فـي يـدها سنبلة، فقط كنت الوحيد الذى هزته رعشة خفيفة وهو يفـتح شباك عربته ويصنع من كفه بوقـاً لينـادى أمـه بصـوت مختنق..

*　　　*　　　*

الجنـــة

وقلت: المصطافون الهاربون من جحيم البلاج إلى جنة العزلة هم وحدهم الذين سيعثرون علي، فقط عليهم تخطـى سلسلة متقطعة من التلال الرملية، وعبور ٥٠٠ متـر مـن العشب الكثيف المحترق، ثم تحطيم أكبر قـدر ممكـن مـن مخلفات القواقع البيضاء الرقيقة تحت أقدامهم الحافية، ساعتها فقط يمكنهم أن يشهقوا مأخوذين حين تظهر أمـامهم فجـأة مزارع السمك الممتدة على هيئة مستطيلات لا حد لفتنتها من المياة الفضية.

ستضرب خياشيمهم الرائحـة القويـة المنبعثـة مـن الملاحات القريبة وسيستغرقهم منظر الزبد المتكـاثف عنـد الشاطئ مثل طبق جيلى يقاوم الريح الواهنة، وسيعثرون على طافياً، أنا سمكة البورى التى نقرها طائر أبيض جميل...

*　　　*　　　*

الأوبـــرا

ورأيتهم فى مساء كهذا يهبطون ملثمـين مـن الخيـام البعيدة على دار الأوبرا. غاصت أقدامهم الحافية في شـريط السجاد الأصفهانى المؤدى إلى الـ Main hall وضـوت سيوفهم تحت كشافات الإضاءة ولاحت حبات الرمل عالقـة بلحاهم الكثيفة الملبدة، كانوا يرتدون السواد وهم يسيرون فى صف طويل يتقدمهم كبيرهم وعرج خفيف يصـبغ خطواتـه أثناء صعوده خشبة المسرح.

اعتدل فى جلسته على المقعد الجلدى الوثير ثم دق فجأة بمقبض سيفه على المكتب الذى جئ به من لندن خصيصـاً لهذه المناسبة:

صاح:

ـ إن الحمد !

فتوقفت على الفور الفتيات الشـقراوات عـن عـزف مقطوعة فاجنر، وامتدت لاشعورياً الاصابع الرقيقة تدارى ما أمكن مدارته من نهود كانت تطل بأعناقها من فتحات الصدر الواسعة فى فساتين السواريه .

أطرق الكبير لحظة يحدق فى وجوه مستقبليه ، ثم هز رأسه في أسى قبل ان يريح رأسه على المكتـب ويغمـض عينيه ويتعالى شخيره رويداً في فضاء القاعة المستتب ..

* * *